زكريا تامر

الحنفذ

قصة

Scanned by
Jamal Hatmal

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

القنفذ

زكريا تامر

القنفذ

قصة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

THE HEDGEHOG

(Short Stories)

By

Zakaria Tamer

First Published in April 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21201-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٥

المحتويات

صديقتي التي لا ترى	٩
النيام	١٣
شجرة جديدة في باحة بيتنا	١٥
أخبار الحائط	١٧
قطاف النارنج	٢١
لغة الأسماك	٢٣
الذين يتكلمون	٢٥
الفخ	٢٩
الهدية المؤجلة	٣١
ورد أم بصل؟	٣٣
الأيام السعيدة	٣٧

القطة الواشية ٤١
سأُعطى سيفاً ٤٣
جدي يتكلم وجدتي نائمة ٤٧
آكلو الغزلان ٤٩
سأشتري بنكاً ٥٣
الغبار كثير ٥٧
الحقيبة ٦١
المغارة الأخرى ٦٥
أسرار الرجال ٦٩
الملح ٧٥
سألتُ ٧٩

صديقتي التي لا تُرى

ذهبت أمّي لزيارة جارتنا أمّ بهاء، ورفضت أن تأخذني معها بحجّة أن النساء يزرن النساء والرجال يزورون الرجال، وتركتني وحدي في البيت واعدة أنها لن تغيب سوى دقائق.

قلت لقطّتي إنّي سأشنقها، فلم تبال بي، وتابعت تنظيف شعرها بلسانها.

وقلت لشجرة النارنج المنتصبة في حوضها الترابي في باحة البيت إنّي سأحضر فأساً وأقطعها، فلم تصفر أوراقها رعباً.

وقلت للحائط إنّي سأنطحه برأسي نطحةً تهدمه، فضحك ساخراً من تهديدي، وقال لي متحدّياً: «هيّا جرّب وستكسر رأسك وتندم».

وخيّل إليّ أنّ شخصاً يحوص في الغرف العلوية، فقلت لنفسي مشجّعاً إنّ الهواء هو الذي يحرّك شباكاً مفتوحاً، ولكنّي تنبهت أنّه

لا وجود لأيّ هواء في تلك اللحظات قادر على تحريك ورقة صغيرة من أوراق الشجر، وصحت بصوت خشن ممطوط وأنا أقف في باحة البيت متطلعاً إلى أعلى: «من فوق؟».

ففوجئت بسماع ضحكة مرحة بالقرب مني، وتطلعت فيما حولي، فلم أر أحداً، وقلت متسائلاً: «من يضحك؟».

فأتاني صوت بنت تقول: «أنا أضحك. الضحك ممنوع؟».

قلت: «من أنتِ؟».

قال الصوت: «أنا جنيّة البيت».

قلت: «أنا لا أراك. أين أنتِ؟».

قالت الجنيّة: «أنا قربك، ولا تستطيع أن تراني، ولكنّي أراك».

قلت للجنيّة: «ماذا تريدين مني؟».

قالت الجنيّة: «لا أريد منك أيّ شيء، ولكنّ أمّي ذهبت لزيارة إحدى صديقاتها وتركتني وحدي في البيت، وأنا ضجرة وخائفة».

قلت باستغراب: «وهل لك أمّ؟».

قالت الجنيّة: «لي أمّ وأب وأخ أكبر مني سنّاً ويذهب كلّ صباح إلى المدرسة».

قلت: «وهل هناك مدارس للجان؟».

قالت الجنيّة: «وتوجد أيضاً جامعات».

قلت: «كم عمرك؟».

قالت الجنيّة: «خمس سنوات».

قلت: «أنا أكبر منك بسنة».

قالت: «لا تكذب».

قلت: «أنا أكبر منك بشهرين وثلاثة أيام».

قالت الجنيّة: «حين أكبر وأصير صبيّة سيصبح بمقدورك أن تراني كما أراك الآن».

قلت: «وأين تعيشين؟ وأين تعيش عائلتك؟».

قالت الجنيّة: «هنا في هذا البيت. أبي وأمي ينامان في غرفة، وأخي في غرفة، وأنا في غرفة».

قلت: «ولكنّ كلّ بيتنا لا يتألف إلّا من ثلاث غرف للنوم وغرفة للضيوف وغرفة للجلوس».

قالت الجنيّة: «بيتكم بيتنا، وغرفه غرفنا».

قلت: «وأين تنامين؟».

قالت الجنيّة بصوت خجل: «في غرفتك».

قلت: «ما لون شعرك؟».

قالت الجنيّة: «شعري أسود طويل، وبشرتي سمراء، وعيناي كبيرتان خضراوان».

قلت بارتباك: «أنا أحبّ العيون الخضر».

فضحكت الجنيّة بمرح، وقالت لي: «عندما تكبر ستحبّ العيون الخضر والزرق والسود والرمادية».

قلت: «لن أكبر».

قالت: «بل ستكبر وأكبر».

وعندما عادت أمّي إلى البيت وجدتني قاعداً على الأرض أحكي وحدي وأضحك، فقالت لي: «بسم الله على عقلك. أجننت حتّى تحكي وحدك؟».

فأخبرتها بأنّي كنت أتسلى بالحكي مع بنت جنيّة عمرها قريب من عمري، فقالت لي بصوت جاف: «اخرس. لا وجود لأيّ جانّ في بيتنا. لم نسكن هذا البيت إلّا بعد أن أحضر أبوك قرّاء قرآن وفرقة منشدين».

ولم تبالِ أمّي بما رويت لها عن صديقتي الجنيّة الصغيرة، وأخذتني إلى بيت جارتنا أمّ بهاء قائلة لها بصوت متوسّل: «أنجديني يا أم بهاء. ليس لي غيرك بعد الله. الله يأخذني. كان عليَّ ألّا أتركه وحده في البيت».

فهدأتها أمّ بهاء، وقالت لها: «لا تقنطي من رحمة الله».

ووضعت أمّ بهاء يدها على رأسي، وراحت تتلو آيات من القرآن بصوت يعلو وينخفض حتّى نعست ونمت.

وسمعت أمّ بهاء تقول لأمّي بلهجة مطمئنة: «اتركيه نائماً، وحين يصحو من نومه ستجدينه بإذن الله معافى، وقد لا يذكر شيئاً».

فسخرت سرّاً من أمّ بهاء أول مرة في حياتي، فالصديق لا ينسى صديقه، وتنبهت وقتئذٍ إلى أنّي لم أسأل صديقتي الجنيّة عن اسمها، فأسفت، ولم يتح لي معرفة اسمها لأنّي حاولت فيما بعد محادثتها ولم أنجح، ولم أدرِ السبب الذي جعلها تزعل منّي وتمتنع عن التكلّم معي، ولكنّي حين سأكبر، سأبحث عن فتاة شعرها أسود وبشرتها سمراء وعيناها كبيرتان خضراوان.

ولم أعد أنام في غرفتي في وسط السرير كعادتي، وصرت أنام على قسمه الأيمن تاركاً القسم الأيسر منه فارغاً حتى يستطيع الراغب في النوم أن ينام براحة تغريه بتكرار النوم في ليال أخرى.

النيام

أحوص في باحة بيتنا المغمورة بشمس الصيف.

في باحة بيتنا خمس أشجار: شجرة نارنج وشجرة ليمون حلو وشجرة ليمون حامض وشجرة كبّاد وشجرة خامسة لا تثمر أيّ ثمر، سألت أبي عنها، فأجاب باختصار أنها مجرد شجرة خضراء، وهذا يكفي سبباً لبقائها والحفاظ عليها.

ألصقت أذني اليمنى بجذع شجرة النارنج، فلم أسمع قلباً يخفق وينبض، فقلت لنفسي إنّ شجرة النارنج نائمة، ولا بدّ من أنها مختلفة عنّا، تنام وينام قلبها.

شجرتي نائمة.

الماء في الأنابيب نائم أيضاً، وسيفيق من نومه إذا أدرت يد الحنفية التي تسجنه، ولكنّي حُذرت بشدّة ألّا ألعب بالماء.

قطتي نائمة، وستصحو من نومها ويتكاثر مواؤها إذا اقتربت من

أنفها قطعة لحم أو قطعة جبن.

الحيطان نائمة، أسألها ولا تجيب.

الأرض نائمة، أمشي فوقها على رؤوس أصابع قدميّ حتى لا أوقظها من نومها.

أنظر إلى الشمس صفراء بيضاء، ولا تقوى العيون على النظر إليها، وأنظر إلى السماء زرقاء تملك غيمة صغيرة بيضاء، أراقبها طويلاً، فلا تتحرك كأنّها نائمة أو مثبتة بالمسامير بزرقة السماء.

العصافير هي وحدها المستيقظة، تطير من شجرة إلى شجرة، ولا يصدر عنها أي صوت، ولكنّ الشمس حين تبدأ بالمغيب تتخلى العصافير عن كسلها وتغرد كأنّها تودع الشمس أو ترحّب بالليل الذي سيأتي.

الهواء ليس نائماً، ويكتفي بين الحين والحين بتحريك أوراق الشجر حركة واهنة كأنّه ينبهها إلى أنّه موجود، وينبغي لها أن تخشى باستمرار غضبه الذي يسقط الكثير من أوراقها، ولكنّ الهواء مغرور لا يعلم أنّه لا يسقط سوى الأوراق التي اصفرّت وماتت وستسرّ الأشجار بالخلاص منها.

وأنا أيضاً كالهواء لست نائماً ولا مستيقظاً، ولكني أتثاءب وأبادر إلى إحضار سجادة اعتادت أمّي الصلاة عليها أحياناً، وأفرشها في مكان في باحة البيت لا تصل الشمس إليه، وأستسلم للنوم مشفقاً على العصافير.

شجرة جديدة في باحة بيتنا

وقفت على التراب حافياً بين شجرتي النارنج والليمون راغباً في أن أصير شجرة مقتنعاً أن جذوراً ستنبت في باطن قدمي، وتتغلغل في التربة، ورفعت إلى أعلى ذراعي اللذين سيصيران غصنين ينبتان أغصاناً أخرى، فيدهش أبي وأمي وأخي، ويتساءلون بحيرة عن هذه الشجرة التي نبتت وحدها من دون يد تزرعها وتعنى بها، ومن دون أن يتنبه لها أحد، ولكنهم في الوقت نفسه لن يستطيعوا التمتع بها لأنهم سيكونون حزانى على فقدي الغامض، ولم يعثروا عليَّ لا حياً ولا ميتاً، ولن يستطيعوا نسياني، ولن يخطر لهم أني قد صرت شجرة خبز أبيض طازج ساخن، كلما قطف منها رغيف نبت بدلاً منه فوراً رغيفان، فلا يبقى جائع، وينقضّ عليَّ رجال أجلاف راغبون في بقاء الجوع منتشراً، وتنهال عليَّ فؤوسهم، فأتوجع، وأصيح متوجعاً، فسمعت أمي صياحي، وخرجت من الغرفة راكضة، وسألتني بلهفة عما بي، فلم أردّ بكلمة، وبقيت محافظاً

على وقفتي في الحوض الترابي بغير حركة، فقالت لي أمي بصوت موبخ: «ألن تبطل التمثيل السخيف الذي يرعبني؟».

وصاحت منادية أخي الكبير، وقالت له ضاحكة: «أخوك المسكين جنّ».

فسألني أخي عما أفعل، فلم أجاوب لأن الأشجار لا تتكلم، ولم أبال بتعليقات أمي وأخي المتهكمة عليّ، وظللت واقفاً في الحوض الترابي مرفوع الذراعين، ولم أتركه إلّا عندما جلست أمي وأخي لتناول طعام الغداء، وأكلت بشراهة، فالأشجار أيضاً تهلك إذا لم تحصل على ما تحتاج إليه من غذاء.

أخبار الحائط

سألت صديقي الحائط الأسود الحجري المفضل لديَّ عن آخر أخبار بيتنا، فقال إن كلّ شيء هادئ ولا جديد يستحق الذكر، فقلت له: «ولكنّ أمّي منذ الصباح عابسة الوجه».

قال الحائط: «إذا كانت حيطان غرفة أمّك وأبيك غير كاذبة، فعبوسها لا سبب له سوى اختلافها مع أبيك».

قلت: «ولماذا اختلفت أمّي مع أبي؟».

قال الحائط: «أبوك اقترح الانتقال إلى حارة جديدة وبيت جديد، وأمّك رفضت فوراً اقتراحه، وقالت إنّها تحبّ هذا البيت ولن تتركه».

قلت: «ولكننا إذا انتقلنا إلى بيت جديد، فلن تستطيع الانتقال معنا».

فقال الحائط لي ساخراً: «لا تقلق. سأزكيك لدى الحيطان الأخرى حتى تحكي معك وتسليك».

فلمست الحائط بيد حانية، وقلت له: «ولكنّ الحيطان الأخرى لن تكون مثلك ولن تحلّ محلّك».

قال الحائط: «كفّ عن لمسي وإلّا بكيت، ومن المعيب أن تبكي الحيطان».

فتركت الحائط، وهرعت إلى أمّي، وقلت لها متسائلاً: «أصحيح أننا سننتقل إلى بيت جديد؟».

فقالت أمّي لي: «ألن تبطل عادتك في التجسس والتنصت لأحاديث الآخرين؟».

قلت: «الخبر صحيح أم غير صحيح؟».

قالت أمّي: «أبوك يريد الانتقال إلى بيت حديث.. إلى طابق في بناية، وقال إنه يشفق عليّ وسئم البيوت القديمة التي تحتاج باحاتها إلى تنظيف كلّ يوم».

قلت: «ولكنّ أبي لا يساعدك في تنظيف الباحة، ولا أحد غيري يساعدك كل يوم».

فضحكت أمّي، وقالت لي: «ليتك لا تساعدني! أنظف الباحة في ساعة، وحين تساعدني أنظفها في ساعتين».

قلت: «أنا لن أترك هذا البيت».

قالت أمّي: «اطمئن. لن نترك هذا البيت، وسأناقش أباك في الليل، وسيقتنع برأيي».

فهممت بأن أسألها عن السبب الذي يجعلها تختار الليل دائماً لمناقشة أبي، ولكني اكتفيت بأن قلت لها: «سأقول لأبي إننا نحبّ هذا البيت ولا نريد الانتقال إلى بيت لا نعرفه».

قالت أمّي: «الصغار لا يتدخلون في شؤون الكبار».

قلت: «ومتى سأكبر؟».

قالت أمّي: «بعد عشرين سنة».

قلت متذمراً متضجراً: «أف!».

ولذت بالصمت مفكّراً، فسألتني أمّي: «بماذا تفكر؟».

قلت: «حين سأكبر عشرين سنة، هل ستكبرين مثلي عشرين سنة؟».

قالت أمّي: «سأكبر عشرين سنة وأصبح عجوزاً».

قلت: «وهل ستموتين عندما تكبرين وتصبحين عجوزاً؟».

قالت أمّي: «من يدري؟ الصغير يموت والكبير يموت. قد أموت بعد لحظة أو بعد ستين سنة».

قلت: «وماذا يحدث إذا متّ؟».

قالت أمّي: «ستبكون عليَّ أياماً ثم تنسوني وأظلّ أشتاق إليكم».

قلت: «سأزورك كلّ يوم، وأجلب لك ورداً أحمر».

قالت أمّي: «لا تكذب وقل الصدق. أَستزورني كلّ يوم أم كلّ سنة؟».

قلت: «سأزورك كلّ يوم مرتين».

وتخيّلت أنّي أزور قبر أمّي، وهرعت إلى صديقي الحائط، وألصقت وجهي به، فقال لي: «إذا ظللت تبكي، اضطررت إلى البكاء أكثر منك، والحائط الذي يبكي يصبح هزأة بين الحيطان».

فقلت للحائط: «أنا لا أبكي، ووجهي مبتلّ بالماء لأنّي غسلته كعادتي كلّ صباح».

وتخيّلت بيتنا بغير أمّي وأبي وأخي، فحزن الحائط، وتبلل بدموع لم تجد يداً تمسحها.

قطاف النارنج

هرولت في باحة بيتنا المغمورة بشمس الظهيرة مقلّداً ثغاء خروف جوعان وعطشان، فطلب إليَّ أبي أن أصمت حتى لا يوقظ ضجيجي أمّي التي استسلمت للنوم قليلاً بعد أن تعبت في طهو الطعام وغسل الثياب وتنظيف البيت، فلذت بالصمت، وأشرت بسبابة يدي اليمنى إلى غصن من أغصان شجرة النارنج، وتوسلت إلى أبي أن يحملني ويرفعني إلى أعلى حتى أستطيع قطف نارنجة بدت لي جميلة ناضجة حمراء، فسألني أبي متعجباً: «وماذا ستفعل بها؟ النارنج مرّ وحامض».

قلت: «سأتفرج عليها».

قال أبي: «ما دمت لا تريد منها سوى أن تتفرج عليها، فتفرج عليها من دون أن تقطفها».

فقلت لأبي مهدداً: «إذا لم ترفعني إلى شجرة النارنج، فسأقلد صياح

الديك وأوقظ أمّي».

فضحك أبي، وقال لي: «أمّك لا تكره صياح الديوك، وإذا استيقظت من نومها، فقد تصنع لي فنجان قهوة».

قلت لأبي مهدداً: «سأقلد نهيق الحمير».

قال أبي: «أنت مستعجل بلا سبب. انتظر حتى تكبر، فتستطيع وحدك أن تقطف ما تشاء من الأشجار العالية، ومن دون أن تطلب مساعدة أحد».

قلت لأبي: «سأبكي وتستيقظ أمّي من نومها وأقول لها إنّك ضربتني»..

قال أبي: «افعل كل ما يحلو لك، ولكنّي أنصحك بأن تتعلّم كيف تتسلق شجرة النارنج، وعليك أن تجيد التسلق حتى لا تسقط ويتكسر رأسك».

فزعلت من أبي، وقلدت ثغاء الخراف وصياح الديوك ونهيق الحمير ونعيب الغربان ونقيق الضفادع، وبكيت، وملأت شعر رأسي بالتراب، وأيقظت أمّي من نومها، ولكنّ أبي لم يلبِّ طلبي، واضطررت إلى التدرب وحدي على تسلّق الشجر العالي محاذراً أن أسقط.

لغة الأسماك

كانت أمّي جالسة في باحة البيت تحاول رتق بعض الجوارب وهي مقطبة الجبين، فتوسلت إليها أن تصف لي البحر الذي لم أره مرة، فقالت لي بصوت مغتاظ نفد صبره: «أف! ألم تملّ من التحدث عن البحر؟ لقد وصفته لك أكثر من مليون مرة واهترأ لساني».

قلت: «هذه آخر مرة».

قالت أمي: «البحر كالنهر، ولكنه أكبر منه».

قلت متسائلاً بدهشة: «وكيف يكون البحر كالنهر؟ أليس ماء البحر مالحاً ولا يصلح للشرب؟».

قالت أمّي: «ما دمت تعرف كلّ شيء عن البحر، فلماذا تسألني عنه؟».

قلت: «هل البحر بحجم بيتنا؟».

قالت: «أكبر».

قلت: «وتسير فيه بواخر بحجم البنايات؟».

لم تجب أمّي، وازداد عبوس وجهها، فسألتها: «هل صحيح أنّ البحر تعيش فيه أسماك بعضها يأكل الناس؟».

قالت أمّي بنزق: «وسيأكلك أيضاً إذا لم تسكت وتدعني أكمل رتق جوارب أخيك».

قلت: «هل تتكلم الأسماك كما نتكلم؟».

قالت أمّي: «الأسماك تتكلم، ولكنّ اللغة التي تستخدمها لم يستطع أحد أن يعرفها».

ففكرت في ما قالته أمّي ثم أخبرتها بأنّي عندما أكبر سأكتشف لغة الأسماك وأتقنها، وأنجح في إقناع الأسماك بألّا تأكل الناس.

ولمّا عاد أبي من عمله في المساء أنبأته أمّي بما سأفعله حين أكبر، فضحك بمرح، وقال لها: «ولكنه لن ينجح في إقناع الناس بألّا يأكلوا الأسماك».

فنظرت إلى أبي بحنق، وتذكّرته وهو يلتهم بشراهة الأسماك مقليّة أو مشوية.

الذين يتكلمون

حين أموء كالقطط، تسخر مني أمّي، ويسخر مني أبي قائلاً إنّ في البيت قطّين.. قطّة وقطّ، ويسخر مني أخي الذي يكبرني بعشرة أعوام ويتباهى دائماً بأنّه يتعلّم اللغة الفرنسية في المدرسة، فلا أردّ على سخريتهم، وأكتفي بالابتسام لأنهم ما زالوا يجهلون أنّي لا أموء إلّا حين أريد التحدث إلى قطّتي البيضاء التي أعرف لغتها، وأعرف أيضاً لغة الحيطان والشجر والطيور.

القطط لا تنطق بكلمة إلّا بعد أن تفكر فيها مطوّلاً.

الحيطان ثرثارة، تُسأل سؤالاً، فتتكلم طوال ساعات محاولة أن تجيب.

الشجر يحبّ الصمت بحجّة أن الكلام يستنزف قواه وينسيه ما عليه من عمل.

الطيور مختلفة الطبائع: الغراب لا يتكلّم إلّا إذا سُئل سؤالاً يثير

فضوله، والحمامة تحبّ الكلام اللطيف الوديع، والبلبل كلّ كلامه غناء، والعصافير الدورية تتكلّم بسرعة تفوق سرعتها في التنقل من غصن إلى غصن.

وقبل أيام، أخبرني الحائط أنّ أخي يقتني مجلة ملأى بصور نساء عاريات، ويخبئها تحت فراشه، ولم يكذب الحائط عليّ لأنّي عثرت على المجلة تحت الفراش، وتصفحتها على مهل، فسألني الحائط عن رأيي في ما أرى، فقلت له إن أخي اشترى المجلة ودفع ثمنها ليتفرج على ما أراه مجاناً حين أكون في حمام السوق برفقة أمّي. وأريت صور المجلة لقطّتي، فتثاءبت، وقالت لي: «أفضل لحماً يؤكل».

وسألت الغراب عن الفارق بين الرجل والمرأة، ففكر مطوّلاً ثم قال لي: «المرأة تخاف من الغربان والرجال لا يخافون منها».

ولم أُعِد المجلة إلى مكانها تحت فراش أخي بل خبأتها تحت فراشي، وظلّ أخي طوال أيام ينظر إلى أمّي بخجل ويطيع كل أوامرها ظانّاً أنّها هي التي اكتشفت وجود المجلة تحت فراشه وأخذتها، ولم يسترد أخي مجلته إلّا بعد أن أعطاني كرته المطاطية الزرقاء اللون التي كنت أحلم بنيل كرة مثلها.

ورأيت أمّي منهمكة في التحادث مع ثلاث من جاراتها، فدنوت منها، وسألتها عن الفرق بين الرجل والمرأة، فضحكت الجارات ، وقالت إحداهن لأمّي: «ما شاء اللّه! لم يبق له إلّا أن يسأل عمّا يفعل العريس في ليلة عرسه».

فسألت أمّي والجارات: «ماذا يفعل العريس في ليلة عرسه؟».

ازداد ضحك الجارات، وأمرتني أمّي بأن أخرس، وألّا أقاطع الكبار وهم يتحدثون، وأن أبتعد عنها وأتابع اللعب بكرتي، فزعلت، وطوّحت بكرتي بأقصى ما أملك من قوة، فطارت الكرة إلى أعلى

ولم تنزل، ولم أعثر عليها على الرغم من أنّي طرقت كلّ أبواب بيوت الجيران سائلاً عنها.

واقتنعت بعد حين أنّ غراباً لا يكلّمني حين أكلّمه هو الذي اختطف كرتي وهي طائرة، وأعطاها لابنه.

ولمّا حكيت لأمّي ما جرى، ابتسمت، وقالت لي: «من حقّ الغربان الصغيرة أن تلعب أيضاً بالكرة».

فلم أوافق على رأيها، وظللت أطارد الغربان بالحجارة وأرغمها على النعيب الغاضب.

الفخ

دخل أخي إلى غرفة الضيوف، فحاولت اللحاق به، ولكنّه بادر إلى إغلاق الباب من الداخل بالمفتاح، فحاولت النظر من النافذة، فسارع أخي إلى إسدال الستائر عليها، فهرعت إلى ثقب قفل الباب، وحاولت النظر منه، فنفخ أخي مسحوق العطوس في وجهي، فرحت أعطس العطسة تلو العطسة، وانهمرت الدموع من عينيّ، فسألتني أمّي المنهمكة في تقطيع الخضروات عمّا بي، فحكيت لها ما فعله أخي بي، فضحكت، ونصحتني بالكفّ عن الفضول والتدخل في ما لا يعنيني.

ولم تتنبه أمّي إلى قطّتي التي دنت من الصحن المملوء باللحم الذي ستطهوه مع الخضروات، وأكلت اللحم كلّه.

وعندما انتهت أمّي من تقطيع الخضروات، حملقت مبهوتة إلى صحن اللحم الفارغ، وصاحت: «أين اللحم؟».

قلت: «أكلته القطة».

قالت: «ولماذا لم تمنعها أو تخبرني؟».

قلت: «أنا لا أتدخل إلّا في ما يعنيني فقط، ولا علاقة لي بشؤون المطبخ».

وطهت أمّي الخضروات بغير لحم، وأكلتُها على مضض.

ولم تغضب أمّي عندما ضبطتني بعد أيام أتنصت على جدّي يحدّث جدتي عن وصيته الأخيرة وما تحويه، وسألتني بإلحاح وبصوت هامس عمّا سمعته.

الهدية المؤجلة

سعل جدّي عدة سعلات، شرب بعدها جرعات من كأس الماء التي قدمتها إليه جدتي، ثم قال لجدتي إنّ الحالة ليست على ما يرام وآن الأوان كي يكتب وصيته حتى لا يُظلم أحد، فقالت له جدتي: «عيب التفكير في مثل هذه الأمور، فليس لنا سوى ابن واحد، يحتار المسكين في إرضائنا».

قال جدّي: «وأنت؟ ماذا سيحلّ بك بعدي؟».

قالت وهي تضحك: «الأعمار في عائلتي قصيرة، وسأموت قبلك، ولن أحتاج إلى أحد غيرك».

وتنبه جدّي لوقوفي بالقرب منهما، فناداني، وقال لي: «اسمع يا ابن ابني. جدّك مقصّر في حقّك، ويحبّ أن يهدي إليك هدية ذات قيمة، ولا يعرف الهدية التي تعجبك».

فقلت لجدّي: «اشتر لي كلباً».

قالت جدتي: «ألا تعرف أنّ الكلاب تكره القطط، والقطط تكره الكلاب، وبينهما عداوات قديمة؟».

وقال جدّي: «الكلب سيتشاجر مع قطتك، وقد يميتها».

قلت لجدّي: «اشتر لي حصاناً. أنا أحبّ الأحصنة».

قالت جدتي: «ما هذا الحبّ؟ أتسمح لمن يحبّك بالركوب على ظهرك؟».

وقال لي جدّي: «وأين سينام الحصان؟ في غرفتك؟ الحصان يحتاج إلى اصطبل».

قلت لجدّي: «اشتر لي تلفزيوناً صغيراً، أضعه في غرفتي بجوار سريري».

قال جدّي: «رؤية التلفزيون ستمنعك من النوم، وأنت صغير تحتاج إلى كثير من النوم حتى تكبر».

قلت لجدّي: «اشتر لي دراجة».

قالت جدتي: «أعوذ باللّه! ستقع وتتكسر عظامك».

وقال جدّي: «وقد تصدمك سيارة ونقرأ الفاتحة على روحك».

فسكتُّ متحيّراً، وتأملني جدّي بنظرات متفحصة، وقال لي: «أحسن هدية لك هي مشط تمشّط به شعرك المنفوش دائماً».

فنظرتُ إلى رأس جدّي الخالي من الشعر، وقلت له: «أنا الذي سيشتري لك مشطاً يعجبك».

فضحكت جدتي، وعبس وجه جدّي عبوساً لا يبشر بخير، ولم أنل لا كلباً يعوي على الذين يضايقونني، ولا حصاناً أركبه ونركض معاً في البساتين، ولا تلفزيوناً يسليني، ولا دراجة تجعل كلّ أولاد الحارة يغارون مني، ولا مشطاً أمشّط به شعري المنفوش دائماً.

ورد أم بصل؟

رأتني أمّي وأنا أقف مشدود القامة أمام المرآة واضعاً سيجارة بين شفتيّ، فانتزعتها من فمي بحركة ساخطة، وقالت لي مؤنّبة: «طولك شبر وتدخن السيجارة؟ لا تزال السيجارة أطول منك».

قلت: «انظري إليّ. أنا أطول بكثير من السيجارة».

قالت: «من أعطاك السيجارة؟ لا تكذب».

قلت: «أخذتها من علبة سجائر أبي».

قالت: «سيجارة واحدة؟».

قلت: «واحدة».

قالت: «لا تكذب».

قلت: «أنا لا أكذب. نبّشيني».

قالت: «ومتى أخذتها؟».

قلت: «البارحة بعد العشاء».

فتكلّمت أمّي كلاماً كثيراً بصوت ناصح، فوضعت رأسي على ركبتها ونمت.

وعندما عاد أبي من عمله في المساء، وجلسنا حول الطاولة كالعادة نتناول معاً طعام العشاء، أخبرته أمّي بما فعلته، فضحك أخي، وهمس في أذني متنبئاً بشماتة بأنّي سأعاقب بالضرب، ونصحني بالاستعداد أو الفرار، فنظرت إلى أبي بخوف، فربت بيده على شعر رأسي، وقال لأمّي: «هذا الولد القرد ابن أبيه فعلاً، فأنا عندما دخنت أول سيجارة كنت أصغر منه».

فصاحت أمّي بغضب: «أهكذا يحكي الأب مع أولاده؟ ستفسدهم وتضيّع كلّ تعبي في تربيتهم».

فقال أبي لأمّي بينما هو يتناول طعامه بشهيّة: «يا بنت الحلال... لا تضخّمي الأمور التافهة. الوردة الصغيرة تكبر وتصير وردة كبيرة، والبصلة الصغيرة تكبر وتصير بصلة كبيرة، لا البصلة تصبح وردة ولا الوردة تصبح بصلة».

فازداد احمرار وجه أمّي، وقالت لأبي بصوت مهدد: «إذا لم تسكت، فسأولول وأخرج من البيت حافية».

فقلت لأمّي: «إذا ولولت ظنّ أهل الحارة أنّ لدينا ميتاً».

قالت: «سأقول لهم إنّك متّ واسترحت منك».

قلت: «وإذا مشيت في الحارة حافية تجرحين قدميك».

فقالت لي أمّي بنزق: «اخرس».

فنظرت إلى أبي متحيّراً، وهممت بالكلام، فقال لي: «أأنت أطرش؟ ألم تسمع ما قالت أمّك؟ اخرس وكلْ وأنت ساكت».

ولم أتكلّم طوال السهرة، ولم أجاوب عن أيّ سؤال وجّه إليَّ، وظللت صامتاً، وصممت على أن أظل صامتاً، ولم أتراجع عن ذلك التصميم في اليوم التالي، ولم تفلت من فمي كلمة واحدة طوال النهار، ولم تنجح كلّ محاولات أمّي لإغرائي بالكلام، ولكنّي أعلمت قطّتي والحائط والطيور والأشجار بأنّي مضرب عن الكلام، فلم يحزنوا أو يستنكروا، واعتبروا أنّ ذلك اليوم هو يوم راحة طال انتظارهم له، فاستأت منهم، وشتمتهم أجمعين بصوت عالٍ منده، فأتت أمّي إليَّ مسرعة، وقالت لي: «خير؟! أراك عدت إلى الكلام. من كنت تشتم؟ كم نصحتك بالكفّ عن الشتائم؟».

قلت: «لم أكن أشتم أحداً، وكنت أشتم نفسي لأنّي زعّلتك البارحة».

فعانقتني بحنو، وأحضرت آلة تصوير صغيرة، وقالت إنّ جدّي في آخر مرة زرناه فيها طلب صورة جديدة لي، وأوقفتني في مكان مشمس قبالة آلة التصوير، ونصحتني ألّا أتحرك أيّة حركة، ووضعت بين شفتي سيجارة، وصوّرتني والسيجارة تتدلى من طرف فمي، وقالت لي وهي تضحك: «أعرف جدك. ستعجبه الصورة وتضحكه».

وصوّرتني أمّي صورة أخرى كنت فيها أحمل خنجر أبي، وترفعه يدي اليمنى إلى أعلى كأنّه سيهوي بعد لحظة، ولكنّ جدّي لم يحصل على الصورتين لأنّ أمّي لم تكن تجيد التصوير، ففي الصورة الأولى ظهرت جسماً مقطوع الرأس، وفي الصورة الثانية لم تظهر إلّا يدي الممسكة بالخنجر المحدودب النصل.

الأيام السعيدة

كان الطبيب رجلاً هزيلاً، وجهه أصفر وأصابع يده صفر، وقد أخبره أبي أنّ حرارتي في الليل ارتفعت وانخفضت عدة مرات، ففحصني الطبيب بحركات متمهلة ثم طلب إليَّ بصوت خشن نعسان أن أفتح فمي، فلم أطعه، وقال لي أبي: «افتح فمك».

ففتحتُ فمي إلى أقصى حد أستطيعه، فنظر الطبيب إلى داخل فمي مستخدماً مصباحاً كهربائياً صغيراً ثم ذهب إلى مكتبه وشرع يكتب وهو واقف، وظلّ فمي مفتوحاً حتّى طلب إليَّ أبي أن أغلقه.

وأعطى الطبيب وصفة الدواء لأبي، واشترى أبي الدواء من صيدلية قريبة حسب وصفة الطبيب، وعدنا إلى البيت لتستقبلنا أمّي بسيل من الأسئلة، فانتهز أخي انشغال أبي وأمّي في الحديث، وهمس لي قائلاً: «يا مسكين راحت عليك وسنمشي في جنازتك ونرتاح منك».

فلم أجاوبه بأيّة كلمة، وظللت أنظر إليه ساكتاً واجماً، فذهب أخي إلى غرفته، وبقيَ فيها دقائق ثم عاد إليَّ يحمل كتاباً مصوّراً، وكان كتاباً يثير فضولي دائماً وأرغب في الاطلاع عليه وأُمنع من مسّه.

أعطاني أخي الكتاب قائلاً: «تفرج عليه، وأنت لست صغيراً حتى تمزّق صفحاته».

أخذت الكتاب من أخي، ووضعته على ركبتي من دون أن أحاول فتحه وتقليب صفحاته.

قال لي أخي: «لن يخطر لك من رأيت اليوم. رأيت الصبيّ الذي حاول أن يضربك وضربته نيابة عنك وبطحته أرضاً كأنه جورب. ولمّا رآني مات رعباً وركض هارباً لأنّك أخي».

وقال لي أخي: «حين تشفى سآخذك إلى السينما لنتفرج معاً على فيلم جديد لطرزان. كثيرون قالوا عنه إنه جميل ومسلّ جداً وبالألوان، وسيحضر غداً بطل الفيلم من أفريقيا ليحضر أوّل عرض لفيلمه. ما رأيك؟».

قلت: «وهل ستحضر القردة شيتا لتتفرج على الفيلم؟».

قال أخي: «لا أعلم، ولكنّي متأكّد من أنّها ستحضر. ليس من المعقول أن يأتي طرزان وحده وبلا شيتا. سيضربه الناس بالحجارة».

فلم أعلّق بكلمة، وأغمضت عينيَّ، فقال لي أخي بلهجة مرحة: «افتح عينيك بسرعة قبل أن تندم».

فتحت عينيّ، فعرَض عليَّ قبضتيه مضمومتين، وسألني: «احزر. في إحدى اليدين شيء يعجبك للغاية. هيّا احزر إذا كنت شاطراً».

اخترت اليد اليمنى، فإذا هي تحتوي سيارة جميلة صغيرة حمراء.

قال لي أخي: «السيارة لك ما دمت قد حزرت».

أخذت السيارة من يد أخي، ووضعتها فوق الكتاب.

قال لي أخي: «اليوم في مكتبة المدرسة قرأت كتاباً وحفظت حكاية من مغامرات رجل تطول قامته حتى تسبح الغيوم حول خصره، وتقصر قامته حتى يصبح أصغر من برغشة. يريد أن يطول فيطول، ويريد أن يقصر فيقصر حسب مشيئته. هل أحكي لك هذه الحكاية؟».

وأنت أمي قبل أن أقبل أو أرفض، وأعطت أخي ملعقة فارغة وقنينة دواء، وقالت له: «ساعد أخاك على شرب الدواء. ملعقة واحدة، ولا توسّخ الأرض».

فملأ أخي الملعقة بالدواء، وقرّبها من فمي، فسألته مشمئزاً: «الدواء مرّ؟».

شرب أخي جرعة صغيرة من الدواء، وقال: «الدواء مرّ. لا أكذب عليك».

ففتحت فمي، فأفرغ أخي محتويات الملعقة في فمي، وكان الدواء مرّاً لا يطاق، فأسرع أخي إلى المطبخ، وأحضر لي ملعقة ملأى بالسكر الأبيض الناعم، وصبّها في فمي كأنّه ممرض في مستشفى، ثم قال لي: «أنا ذاهب إلى سوق الحارة، فهل تريد أن أشتري لك سكاكر؟ فستقاً محمصاً؟ كاتوه؟».

لم أجب، وأغمضت عينيّ، ولم أسمع صوت باب البيت يفتح ويغلق، ولمّا أفقت من نومي وجدت أخي لا يزال جالساً قربي ينظر إليّ بعينين محمرتين بينما أصابع يديه تعصران منديلاً بحركات عصبية، فمددت يدي وتناولت منه المنديل، وعاودت إغماض عينيّ وأنا أحسّ أنّي سأشفى بغير أدوية الطبيب.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuabd/

القطّة الواشية

قالت لي قطّتي قبل أن ننام إنّ رفاقي لا يحبّونني، فقلت لها إنّي لا أبالي بهم.

قالت لي قطّتي إنّ كل جيراننا متضايقون مني ويبغضونني، فقلت لها إنّ كلّ من يبغضني سيمرض ويندم.

قالت لي قطّتي إنّ أبي لا يحبّني ويحبّ أخي فقط، فقلت لها إنّ أبي يحبني وسيحبّني أكثر حين أكبر وأصبح أقوى من أخي وأطول منه.

قالت لي قطّتي إنّ أخي لا يحبّني، فقلت لها إنّ أخي ضرب كلّ أولاد الحارة من أجلي.

قالت لي قطّتي إنّها الوحيدة التي تحبّني ولا أحد غيرها يحبّني، فقلت لها إن كلامها كذب مفضوح.

قالت لي قطّتي إنّ أمي أيضاً لا تحبّني، فقلت لها إنّ ما تقوله حكي

سخيف، وتثاءبت، وأدرت ظهري لقطّتي، ونمت نوماً عميقاً، ورأيت في أثناء نومي أنّي أرتدي ثياباً سوداً وأمشي غير خائف بين قبور بيض لا يحصى عددها.

سأعطى سيفاً

كنت أحوص في زقاقنا مطيعاً نصائح أمّي بألّا أبتعد كثيراً عن باب بيتنا، فرأيت باب بيت جارتنا أمّ بهاء المقابل لباب بيتنا يفتح فجأة ويطلّ منه رأسها المغطى بمنديل أبيض كبير ينسدل على كتفيها.

سألتني أمّ بهاء عمّا أفعل، فقلت لها إنّي لا أفعل شيئاً ولم أجد في الزقاق من ألعب معه، فقالت لي: «تعال لأريك سيف المرحوم».

وكانت أمّ بهاء امرأة عجوزاً مرحة، تلجأ إليها نساء الحارة كلّما وقعن في ضيق، وتعيش وحدها في بيت كبير، كثير الغرف، زوجها ميت، وكان ضابطاً في الجيش، ولا أولاد لها، ولم أرَ أحداً من أقاربها يأتي مرة لزيارتها، وتعوّدت كلّما رأيتها أن أرجوها أن تريني سيف زوجها، فتوافق مرة وترفض عشر مرات.

دخلت بيت أمّ بهاء فرحاً متعجباً، فأمسكت يدي، وقادتني إلى

غرفة الضيوف حيث كان السيف معلّقاً على الحائط، وأشارت إليه بسبابتها قائلة لي: «ها هو السيف الذي تحبّه».

فحاولت التكلّم، ولكنّي اضطربت وتلعثمت وتأتأت، فقالت لي أمّ بهاء بصوت ساخر: «ما بك ابتلعت لسانك؟ احلِ».

فبللت شفتيّ المتيبستين بلساني، وقلت لها إني مللت النظر إلى السيف من بعيد، وتوسلت إليها أن تسمح لي بالإمساك به، فقالت: «نصله حادّ وقد يجرحك».

فأكّدت لها أنّي سأمسكه من مقبضه، وأكون حذراً جدّاً، فأعطتني السيف، وما إن التفّت أصابع يدي اليمنى حول مقبضه حتّى اجتاحتني قوة مفاجئة غامضة ممتزجة بمرح، فأخذت ألوّح بالسيف بينما كانت أمّ بهاء تصيح بي: «اهدأ يا مجنون».

فكففت عن التلويح بالسيف، ووضعت أمّ بهاء يدها على شعر رأسي، وأمسكت خصلات منه، وتفحصتها مثلما تفعل أمّي ثم سألتني: «شعرك أشقر أم أسود؟».

فقلت لها: «لا أشقر ولا أسود. أمّي تقول إنه خرنوبي».

قالت أمّ بهاء وهي تتابع لمس شعري: «وبماذا تغسله حتّى يصبح ناعماً هذه النعومة؟».

فقلت لها إنّ أمي تغسله بالماء الساخن وبصابون من حلب، وشددت بأصابعي على مقبض السيف، وتخيّلت أنّي أهجم على أولاد الحارة شاهراً السيف، فيهربون كالدجاج المذعور، وابتسمت ابتسامة متشفّية شامتة، وسألت أمّ بهاء: «أتبيعين هذا السيف؟».

فتنهدت، وقالت: «هذا السيف عزيز وغال عليّ لأنه سيف المرحوم زوجي، أراه فأتذكّره، ولا أبيعه حتّى لو دفع لي مال الدنيا».

فاكتأب وجهي اكتئاباً دفع أمّ بهاء إلى الضحك، ووضعت يدها

على كتفي، وقالت لي: «لن أبيعك هذا السيف، ولكنّك ستأخذه مني هدية حين تكبر».

قلت لها وأنا أقف على رؤوس أصابع قدمي: «أنا الآن كبير. انظري إليّ».

قالت: «سأعطيك السيف يوم تصبح رجلاً ذا شوارب».

فسألت أمّ بهاء عمّا كان زوجها يفعل بالسيف، فقالت: «في القديم، كان الناس في الحروب يقتل بعضهم بعضاً بالسيوف».

قلت: «وهل هذا السيف قتل ناساً؟».

قالت وهي تضحك: «قتل مئات إذا كان المرحوم صادقاً».

فلمست نصل السيف بأصابعي، وتخيّلت رجالاً كثيرين يهوي السيف على أعناقهم، فتتطاير رؤوسهم في الفضاء، وتخيّلت أنّي أنا الذي يقتل الرجال، فخفت خوفاً غريباً ممتعاً لم أعرفه من قبل.

واقتادتني أمّ بهاء من غرفة الضيوف إلى المطبخ، وأعطتني تفاحة كبيرة، حمراء اللون، فرفضت أخذها قائلاً لها إنّ أمّي أوصتني ألّا آخذ شيئاً من أحد، فقالت أمّ بهاء: «إذا لم تأخذها سأزعل، وأمّك حذرتك من الأغراب فقط».

فقلت لها إنّي سآخذ التفاحة إذا سمحت لي أن أقطعها بالسيف.

وأكلت التفاحة بعد أن قطعتها بالسيف قطعتين، وكان لها طعم غريب لعلّ سببه أن نصل السيف تلطخ بالدم مئات المرات من دون أن يغسل وينظف.

وماتت أمّ بهاء قبل أن أكبر وأصير رجلاً ذا شاربين، وظهر فجأة ورثة لها كثيرون، باعوا البيت، وأخذوا ما فيه من أثاث، وأخذوا أيضاً سيفي الملطخ بالدم.

ورأيت أمّ بهاء كثيراً في نومي قبل أن أكبر، وكانت دائماً تجول في بيت فسيح الأرجاء، كثير الغرف، وتفتح أبواب كلّ الغرف، وتجد كلّ الغرف خاوية.

جدي يتكلم وجدتي نائمة

ذهبت وأمّي إلى المقبرة لزيارة قبر أبيها وقبر أمّها، وكان قبراهما متجاورين.

قلت لأمّي: «جدّي تكلّم معي الآن وطلب مني أن أطلب إليك ألّا تبكي».

قالت أمّي وهي تمسح عينيها بمنديل أبيض: «اسكت بلا كذب».

قلت: «جدّي يقول لك إنّي لست كذاباً، ويقول لك ألّا تقولي لي إني كذّاب».

قالت أمّي: «وماذا يقول لي أيضاً؟».

قلت: «يقول لك إن الدموع ممنوعة، ومسموح بها حين تقطعين البصل».

قالت أمّي: «وجدتك؟ ماذا تقول لك؟».

قلت: «جدّتي نائمة، والنائم لا يتكلّم».

وغادرنا المقبرة، ومشينا في شارع طويل على جانبيه أشجار وبنايات. وفجأة توقفت أمّي عن المسير، وقالت لي: «ضيّعت الطريق، ولا أعرف أين بيتنا».

فقلت لها: «لا تخافي. امسكي يدي، وأنا أعرف الطريق إلى بيتنا وسآخذك إليه».

فضحكت أمّي، وأمسكت يدي، وسرنا معاً بخطى متمهلة.

وعندما بلغنا البيت، دخلت غرفة أخي، وأخبرته كيف نسيت أمّي الطريق إلى بيتنا وكيف أرشدتها إليه، فقال لي: «أنت حمار، وأمّك كانت تضحك عليك».

فغضبت عليه، وقلت له إنّي سأخبر أبي أنّه يدخّن السجائر خفية، فقال أخي: «ولكني أقرف من السجائر ولم أدخن أيّة سيجارة طوال حياتي».

قلت: «سأكذب وأقول إنّك تدخن السجائر وأبي سيصدقني».

قال أخي: «اخرج من غرفتي فوراً وإلّا ضربتك».

فصحت منادياً أمّي، وما إن رأيتها تدخل الغرفة مسرعة حتّى ارتميت على الأرض، وأخذت أبكي، فانحنت عليَّ وهي تسألني بلهفة عمّا بي، فأنبأتها أنّ أخي ضربني، فبادر أخي إلى الإنكار، واتهمني بالكذب، فلم تبالِ أمّي بما قاله، وصاحت به مؤنّبة: «كم مرة قلت لك ألّا ترفع يدك على أخيك».

ورفعتني عن الأرض، وأخرجتني من الغرفة، وغسلت وجهي بالماء البارد، ووجدت نفسي أبكي، وتذرف عيناي دموعاً حقيقية، وأدهشني ألّا أدهش مما جرى لي.

آكلو الغزلان

تخلى أخي عن الكثير من غروره في أيام الامتحانات المدرسية، وصار لطيفاً متواضعاً خائفاً، ووعدني بأنّه إذا نجح في الامتحانات سيهديني كتاباً مملوءاً بصور ملوّنة للغزلان، فقلت له: «ستنجح حتماً وتنسى أن تهديني الكتاب».

فأقسم أنّه سينفذ وعده.

وكان أخي يعلم مدى حبّي للغزلان، فقد أحببتها منذ أن رأيت في السوق غزالاً مقيداً على باب دكان بائع دجاج حيّ، فسألت أمّي عنه، فأجابت أنّه معروض للبيع. فقلت لها: «وماذا يفعل به من يشتريه؟».

فقالت أمّي: «يذبحه ويسلخ جلده ويطهو لحمه ويأكله».

وكان الغزال الواقف على باب دكان بائع الدجاج جميلاً، لم أرَ مخلوقاً بوداعته، يتحرك ببطء، وينظر إلى ما حوله بعينين مملوءتين

بحزن رقيق يدهم القلب ويبقى فيه ولا يرحل عنه، وتعوّدت في البيت أن أراقب أخي، وكلّما وجدته ضاحك الوجه، رائق المزاج، هاجمته بأسئلتي عن الغزلان، فيحدّثني عنها وأنصت لحديثه خاشعاً كأنّي في جامع: الغزال يعيش في الصحارى.. الغزال لا يأكل إلّا النبات.. الغزال لا يضرّ أحداً.. الغزال لا يذهب كلّ يوم إلى المدرسة.. ولا يوجد غزال يتنقل في السيارة وغزال يمشي على أربع طوال عمره، فأسأل أخي: «وكيف يصيده الناس؟».

يقول أخي: «الغزال ليس قوياً، وليست لديه أسلحة تمكنه من التغلب على الناس، وما إن يلمحهم حتى يركض هارباً، فالغزال يستطيع أن يركض كالريح».

فأسأل أخي: «وهل الريح تركض؟».

فيقول أخي مهدداً بنزق: «سأسكت إذا ظللت تسألني أسئلة سخيفة».

فأقول له بصوت متوسل: «لا تسكت. أنا سأسكت».

فيتابع أخي حديثه عن الغزلان ويقول: «كان الغزال السريع في الركض ينجح قديماً في الهرب والإفلات من الناس، ولكنهم اخترعوا سيارة أسرع منه وصاروا يقبضون عليه بسهولة».

فأعبس، وأسأل أخي بغيظ: «ومن اخترع السيارة؟».

فيقول لي أخي ضاحكاً: «أنا وللّه الحمد لم أخترع السيارة ولم أخترع الطائرة والدبابة».

ويوم أعلنت نتائج الامتحانات، أتى أخي إلى البيت ينطنط فرحاً بظهور اسمه في قوائم الناجحين، فقلت له: «وأين الكتاب الذي وعدتني به؟».

قال أخي: «أي كتاب؟».

قلت: «كتاب صور الغزلان».

قال أخي: «غداً سأشتري لك الكتاب».

قلت: «ولماذا لا تشتريه اليوم؟».

فقال أخي ضاحكاً: «لا يكفي أنك شحاذ بل لديك أيضاً شروط».

ووفى أخي بوعده، ولكنّه لم يشتر لي الكتاب بل اشترى تمثالاً من الخزف لغزال صغير مدّعياً أنّ كتاب صور الغزلان قد نفدت كلّ نسخه، فلم أغضب، وسرّني أنّ للغزال أصدقاء يحبّونه ويستقصون أخباره.

وأحببت تمثال الغزال، وصرت كلّ يوم أجلس قربه ساعات، أنظر إليه وأسأله أسئلة كثيرة، فلا يجيب بكلمة كأنّه أطرش.

وفي يوم من الأيام، كنت ألعب بالكرة في غرفتي، فاصطدمت بتمثال الغزال وأسقطته على الأرض، فتحطم وتناثر قطعاً صغيرةً كأن سيارة مسرعة مرّت فوقه، فحزنت حزناً دفع أخي إلى أن يعدني بأن يهدي إليّ غزالاً حيّاً.

ودعانا جدّي وجدّتي إلى الغداء، فلبينا الدعوة. وبينما كنّا نأكل الأرز واللحم والخضروات، تبارى أبي وأمي وأخي في الثناء على براعة جدتي في الطهو، فقلت لجدتي إنّ اللحم لذيذ لم أذق مثله من قبل، فضحك جدّي وقال لي إنّ براعة جدتي في طهو لحم الغزال لا تضاهى واشتهرت بها، فحملق أخي إليّ بنظرات متفحصة متسائلة، فتصنعت اللامبالاة، وتابعت الأكل كأنّي بلا أذنين.

سأشتري بنكاً

اشترى أبي ورقة يانصيب مؤكّداً أنّ قلبه يحدّثه بأنه سيفوز بالجائزة الأولى حين تعلن الليلة نتائج اليانصيب في برنامج تلفزيوني خاص، فسألته: «كم ستعطيني إذا ربحت؟».

فقال أبي: «سأقسّم ما سأربحه إلى ثلاث حصص. حصّة لك، وحصّة لأخيك، وحصّة لي ولأمّك».

سألتني أمّي: «ماذا ستفعل بحصّتك؟».

قلت: «سأشتري بنكاً».

قالت أمي: «وماذا ستفعل بالبنك؟».

قلت: «لا أعرف».

وتنهد أبي، وقال: «إذا ربحت الليلة، فستكون السيارة هي أوّل ما سأشتريه حتّى أستريح من المشي وانتظار الباصات».

قالت أميّ: «لا لا. لا نريد سيارة. ألا تلاحظ أنّ الناس صاروا لا يعرفون كيف يمشون؟ قد تصدم شخصاً ويموت وتقضي بقيّة عمرك في السجون».

قال أبي: «سننسى السيارة. سأشتري بناية».

قالت أمي: «ولماذا البناية؟ لدينا بيت يكفينا، ولسنا بحاجة إلى القيل والقال. إذا أجّرت البناية بإيجارات رخيصة خسرت وظنّ الناس أنّك قليل العقل وهزأوا بك، وإذا أجّرتها بإيجارات غالية قال الناس عنك إنك حرامي».

قال أبي: «سنشتري تلفزيوناً كبيراً شاشته بحجم الحائط».

قالت أمّي: «أعوذ باللّه! إذا كان التلفزيون الصغير يحرمك النوم ويجعلك لا تنام إلّا في آخر الليل، فماذا سيحدث إذا جئنا بالتلفزيون الكبير؟».

قال أبي: «ولماذا النوم إذا كان اليوم التالي يوم عطلة؟».

قالت أمّي: «إذا كنت لن تحتاج إلى النوم لأنك لن تشتغل في اليوم التالي، فأنا أحتاج إلى النوم حتى أشتغل منذ الصباح في الكنس والتنظيف والغسيل والطبخ شغلاً لا يعرف العطل والإجازات».

قال أبي: «وأنتِ أيضاً لن تحتاجي إلى العمل في البيت لأنّي سأحضر إليك جيشاً من الخادمات».

قالت أمّي: «أف! تصور أيّ عمل شاقّ سأكون مسؤولة عنه حين أضطر إلى مراقبة جيش من الخادمات وإصدار الأوامر إليه».

قال أبي: «احترت. سأشتري سريراً عريضاً مريحاً، من ينم عليه يتركه مجبراً وآسفاً».

فابتسمت أمّي بمكر وقالت: «أنا لا أحبّ إلّا السرير الضيّق».

وأعلنت نتائج اليانصيب بعد قليل في التلفزيون، ولم يربح أبي أيّة جائزة، فاغتاظت أمّي غيظَ من خسر بناية أو سيارة وجيوشاً من الخدم، ونامت في وقت مبكر.

الغبار كثير

رأيت في السماء طائرة لبثت فيها ثواني ثم اختفت، فقلت لأبي: «سأتعلم في المستقبل كيف أسوق الطائرة».

فضحك أبي، وقال لي: «ما دمت تطيّر عقولنا كلّ يوم، لا أستغرب أن تطيّر الطائرة بلا تعليم».

قلت لأبي: «الطائرة صغيرة، فكيف تتسع لسائقها؟».

قال أبي: «الطائرة كبيرة بحجم البيت، وفيها مقاعد ومراحيض».

فسكتُّ لحظات مفكّراً ثم سألت أبي: «كيف تطير الطائرة؟».

قال أبي: «بالبنزين».

قلت: «والسيارة أيضاً تسير بالبنزين، فلماذا لا تطير؟».

فصاح أبي منادياً أمّي مستغيثاً بها أن تنقذه مني، فأتت أمّي مهرولة، وضحكت عندما رأت وجهينا عابسين، وقالت لي: «أبوك تعبان

ويريد الراحة، واليوم الوحيد الذي يستريح فيه ولا يذهب إلى العمل هو هذا اليوم».

فنظرت إلى أبي المستلقي على الأريكة، وكان مغمض العينين، متجعد الوجه، فتذكرت حكاية روتها لي جدتي في ليلة من الليالي عن رجل فقير يعثر على صحن سحري، يغطيه، ويطلب أيّ طلب يشاء، ويرفع الغطاء عن الصحن، فيجد في الصحن ما طلبه.

سأجد هذا الصحن، وأطلب ذهباً أعطيه لأبي، فلا يذهب كلّ صباح إلى العمل، ويبقى في البيت، ويلعب معي، ويجاوب عن كلّ أسئلتي.

سأطلب ذهباً، وأشتري لأمّي ثياباً تجعلها أجمل، وأشتري لأخي كتباً، وأشتري لقطتي لحماً طازجاً تأكله وتتخلّص من شراهتها.

سأطلب ذهباً، وأشتري دراجة.

وتمطى أبي، وتثاءب بصوت عال، وترك الأريكة، ونهض واقفاً، وقال لي: «البس حذاءك. سآخذك معي لنتمشى قليلاً».

وغادرنا البيت معاً نمشي تحت سماء زرقاء وشمس صفراء مشي رجال ليس لديهم ما يفعلونه.

وبلغنا ساحة ملأى بالضوضاء، يتزاحم الناس فيها لرؤية مشنقة محاطة برجال الشرطة، ويتدلى منها رجل مشنوق، فسألت أبي عنه، فقال إنه قتل عائلة بكاملها رجلاً وامرأة وأربعة أطفال.

وكان المشنوق أزرق الوجه، يتدلى لسانه خارج فمه، وكان الناس من حوله ضاحكي الوجوه، فأغمضت عينيّ.

ورأيت في أثناء سيرنا ولداً صغيراً واقفاً على الرصيف يبكي، ولا أحد يسأله عن سبب بكائه، فأغمضت عينيّ.

ورأيت في أثناء سيرنا فتاة في العاشرة من عمرها يغمى عليها وتنقل إلى المستشفى بلا حقيبتها المدرسية، فأغمضت عينيّ.

ورأيت في أثناء سيرنا متسولة تقعد على الرصيف مع ثلاثة أطفال صغار، وسخي الوجوه، مبتوري الأيدي، فأغمضت عينيّ.

ورأيت في أثناء سيرنا رجلين يتضاربان والناس يحيطون بهما ويتصايحون ويحثونهما على أن يضربا ضرباً أشدّ، فأغمضت عينيّ.

سألني أبي: «ما بك يا ولد؟ لماذا تغمض عينيك بكثرة كأنّك أبرص يحاول النظر إلى الشمس؟».

فقلت لأبي إنّ الغبار كثير، وفركت عينيّ بأصابعي العشر، ثم نظرت إليها، فوجدتها مبتلة.

وأمسكت بيد أبي الخشنة القوية التي ستقودني إلى بيتنا حتّى لو كنت مغمض العينين.

الحقيبة

الساعة الرابعة، ولم يأت أخي من المدرسة.

الساعة الخامسة، ولم يأتِ أخي إلى البيت.

الساعة السادسة، ولم يأتِ أخي.

أتى أبي إلى البيت، ولم يأتِ أخي.

قالت أمّي لأبي إنّ أخي تأخّر في العودة إلى البيت من دون سبب تعرفه، فقال لها: «ابنك رجل، لا تخافي عليه».

أتت قطّتي من جولتها المسائية في الحارة، ولم يأتِ أخي.

قال أبي لأمّي: «تأخّر ابنك».

قالت أمّي: «اذهب واسأل عنه».

قال أبي: «وأين سأسأل عنه؟ في مدرسته؟ مدرسته تقفل أبوابها في الرابعة».

قالت أمّي: «اسأل عنه في المستشفيات».

قال أبي: «أعوذ بالله!».

قالت أمّي: «اسأل عنه في مخافر الشرطة».

قال أبي: «أنا في حياتي كلّها لم أدخل مخفر شرطة ولن أدخله».

قالت أمّي: «إذا لم تذهب، فأنا سأذهب».

قال أبي بغضب وسخرية: «ما شاء اللّه! هذا ما ينقصنا».

فلم تفه أمّي بكلمة، وجلست واجمة كأنّها تحوّلت تمثالاً من حجر.

في الساعة التاسعة، فتح باب البيت، ودخل أخي مصفرّ الوجه، يلهث متعباً كأنّه كان يركض طول ساعات، فتجهّم وجه أبي، وبادرت أمّي تسأل أخي عن سبب تأخّره، فقال لها: «دعيني أستريح أوّلاً».

قال أبي لأمّي بلهجة ساخرة: «أما سمعت ما تفوّه به ابنك البيك؟ هيّا أحضري له ماء ساخناً لقدميه وفنجان قهوة وأعطه سيجارة لعلّه يستريح ويستطيع الكلام بعد ساعات».

قالت أمّي لأخي بنزق: «احك أين كنت».

وحكى أخي عن سبب تأخره.

خرج أخي من مدرسته كالعادة في الساعة الثالثة، ومشى متجهاً إلى البيت، وفي أثناء سيره تنبه لامرأة عمرها أكثر من سبعين سنة تحمل حقيبة سفر يبدو أنّها ثقيلة.

وكانت العجوز تحمل الحقيبة وتمشي خطوتين ثمّ تضع الحقيبة على الأرض وتستريح ثمّ تحمل الحقيبة وتمشي خطوتين ثمّ تضع الحقيبة على الأرض وتستريح، فأشفق عليها، وتذكّر كلّ كلام أساتذته في المدرسة عن ضرورة مساعدة الناس المسنين، ودنا أخي من العجوز،

وعرض عليها أن يساعدها في حمل الحقيبة، فشكرته وقالت له إنه ابن حلال، وأعطته الحقيبة، فحملها، فوجدها ثقيلة جدّاً، واستغرب أن تستطيع عجوز حمل مثل هذه الحقيبة، وسألها عن المكان الذي تقصده، فقالت إنها ذاهبة إلى بيتها.

سألها أخي عن موقع البيت، فأجابت أنّه قريب جداً.

مشى أخي وراء العجوز حاملاً الحقيبة، يدخل في حارة ويخرج من حارة، وكلّما سأل العجوز عن بيتها كان جوابها أنّه بات قريباً، وسيصلان إليه بعد دقيقة أو دقيقتين على الأكثر.

وغربت الشمس، وحلّت العتمة، وما زال أخي يحمل الحقيبة ويسير وراء العجوز.

وتعب أخي وتباطأت خطواته، وصارت العجوز تحثّه على السير، وتوبخه، وأحسّ أنّه سيموت من التعب، ووجد نفسه فجأة يرمي الحقيبة على الأرض، ويركض هارباً تتبعه صيحات العجوز التي تتهمه بأنّه ابن حرام.

وعندما ابتعد أخي عن العجوز اكتشف أنّه في حارات يجهلها، فصار يمشي ويسأل ويمشي ويسأل حتى وصل إلى شوارع يعرفها، ولم يستطع ركوب أيّ باص لأنّه نسيَ نقوده في البيت.

وعندما انتهى أخي من كلامه، اكتفى أبي بالقول بصوت آسف: «لا حول ولا قوّة إلّا باللّه».

وقالت أمي لأخي: «العشاء جاهز وسأحضره لك».

فقال أخي إنّه تعبان وغير جائع ولا يريد إلّا النوم.

وعندما استلقيت على سريري محاولاً النوم، ظلّت عيناي مفتوحتين: المرأة العجوز بعد هروب أخي تنحني وتحمل الحقيبة الثقيلة وتمشي ببطء، وتكتشف أنّها أضاعت بيتها، فلا تتوقف عن

المشي، فيعترض طريقها ولد في السادسة من عمره، قويّ الجسم، مفتول العضلات، ويحملها هي والحقيبة، ويوصلها إلى بيتها الذي أضاعته، فتحاول أن تشكره، ولكنّه يسارع إلى الابتعاد عنها، ويركض عائداً إلى بيته ليستلقي على سريره ويغمض عينيه وينام مبتهجاً.

المغارة الأخرى

أضاع أبي وأمّي وأخي السهرة كلّها في التكلّم عن المهنة اللائقة التي تلائم أخي.

أبي معجب بالمحامين وقدرتهم على تحويل المذنب بريئاً والبريء مذنباً، وأمّي امتدحت الأطباء وسرعتهم في جمع الأموال الكثيرة، وأخي لا يتمنى إلّا أن يصير مهندساً، أمّا أنا فقد فضلت أن يكون ملاكماً يستطيع أن يضرب أقوى الرجال ويذلّهم ويبكيهم، فلم يبال أيّ منهم برأيي، واتفقوا أخيراً على أنّ مهنة المهندس ليست بالسيئة لأنّ زمن الخيام ذهب بغير رجعة، والناس يزداد عددهم، ويحتاجون دائماً إلى مزيد من البيوت الجديدة، فلكزت أبي بمرفقي، فنظر إليَّ مستغرباً، فسألته: «وأنا؟».

فلم يفهم قصدي، فأضفت قائلاً: «لم يسألني أحد عمّا سأشتغل حين أكبر».

فأمسك أبي رأسي بيديه وهزّه، وقال لي: «قبل أن نسألك مثل هذا السؤال يجب أن تتأكد أوّلاً مما هو موجود في داخل هذا الرأس».

قلت: «كيف لي أن أعرف ما بداخله؟».

فقالت لي أمّي: «هيا احك. ماذا تحبّ أن تشتغل حين تكبر؟».

فأجبت فوراً: «سأشتغل حرامياً».

فبهتت أمّي، وكبرت عيناها، واستلقى أخي على ظهره، وحرّك ساقيه في الهواء وهو يضحك مبتلّ العينين. أمّا أبي، فقد قطب جبينه، وسألني بصوت جاد: «ومن ستسرق؟ ولماذا ستسرق؟».

قلت: «سأسرق من الفقراء، وأعطي ما أسرق للأغنياء حتّى يصبح الجميع أغنياء ولا يبقى فقير واحد».

فتزايد ضحك أخي، وسألتني أمّي: «ومن أين لك هذه الأفكار العظيمة؟».

قلت: «ألم يكن أبي البارحة يكلّمك متضايقاً من كثرة الفقراء وقلة الأغنياء؟».

فضحك أبي بمرح، وقال لي: «عليك أن تختار مهنة أخرى، فالفقراء حالياً يُسرق منهم كلّ ما عندهم، ويتسلمه الأغنياء حلالاً زلالاً».

فقالت أمّي لأبي: «لا تنسَ أن تخبر ابنك العبقري أننا من الفقراء».

فضحك أبي، وقال: «ولماذا العجلة؟».

ونمت في تلك الليلة حزيناً خجلاً من غير سبب، ورأيت في أثناء نومي أنّي أسير في دروب جبل شاهق، وأدخل مغارة ملأى بالذهب، ويقول لي حارس الذهب الذي أسمع صوته ولا أراه إنّ الذهب مرصود لي ولن يناله أحد غيري، فأصحو من نومي فرحاً، ولكنّي لم أر تلك المغارة ثانية، ورأيت بعد أسابيع مغارة أخرى

مختلفة عندما كنت برفقة أبي وثلاثة من أصدقائه في رحلة صيد، وقد قالوا إنّ ضبعاً افترس رجالاً ونساءً وأطفالاً هو مختبىء في جوف المغارة، وأشعلوا نيراناً هائلة في مدخل المغارة حتى اضطر الضبع إلى الخروج منها وهو يزعق ويحاول الهرب، فأطلقوا عليه النار دفعة واحدة من بنادق الصيد، ولم يكن المقتول ضبعاً مفترساً بل كان كلباً هزيلاً من الكلاب الشاردة.

أسرار الرجال

تناول أبي طعام إفطاره كما اعتاد كلّ صباح، ولكنّه كان يمضغ اللقمة على مهل على غير عادته.

وعندما انتهى من طعام إفطاره، لم ينهض مسرعاً لارتداء ثيابه، ويغادر البيت بل ظلّ جالساً يشرب كؤوس الشاي يتلذذ كأنّ اليوم هو يوم جمعة مع أنّه ليس يوم جمعة، ولمّا نبّهته أمّي إلى تأخره، أخبرها أنّ معمل النسيج الذي يشتغل فيه مغلق اليوم بسبب إصلاحات طارئة يحتاج إليها.

وارتدى أبي ثيابه وهو يصفّر لحناً مرحاً، فسألته أمّي: «خير؟ إلى أين؟».

فقال لها إنّه ذاهب إلى المقهى، فقالت له: «حرام عليك. أنت تقعد في المقهى وأنا أقعد في البيت أتعذّب وأهلك».

قال أبي وهو يلتصق بظهر أمّي: «لا تزعلي. اذهبي إلى المقهى وأنا

سأقعد في البيت».

قالت أمّي وهي تشير إليّ: «خذ هذا العفريت معك إلى المقهى حتّى أستطيع أن أنهي اليوم ما عليّ من أعمال البيت».

ففرحت، وامتدحت اقتراح أمّي، وطلبت منها الثياب التي سأرتديها، ولكنّ أبي قال لي: «اسمع يا ولد. سآخذك، ولكن على شرط ألّا تقول لي بعد دقيقتين إنّك تعبت وتريد الركوب في سيارة تاكسي».

فوعدته بألّا أتعب حتّى لو مشينا إلى آخر الأرض، وخرجنا من البيت معاً، وسرنا في الحارة، ولكنّ أبي لم يتوقف عند مقهى الحارة، وظلّ يسير، فنبهته إلى نسيانه، فقال لي إنّه متفق مع بعض أصدقائه على الالتقاء في مقهى آخر ليس ببعيد.

وفي أثناء سيرنا في الشوارع المزدحمة، رآني أبي أحملق بشهيّة إلى واجهة دكان لبيع الحلوى، فأدخلني إلى الدكان، واشترى لي أنواعاً من الحلوى أحبّها، وقال لي ضاحكاً: «هذا بنزين للسيارة حتّى لا تتوقف».

فقلت وأنا ألتهم الحلوى: «أين البنزين وأين السيارة؟».

فقال لي أبي: «أأنت حمار أم تتحمرن؟».

قلت بدهشة: «أين هو الحمار الذي يتحمّر؟».

قال أبي: «اسأل أمّك، فهي تشكو منه في الليل والنهار».

قلت: «أمّي لا تحبّني، وكلّما سألتها سؤالاً تقول لي: اسأل أباك».

قال أبي: «وماذا سألت أمّك؟».

قلت: «سألتها البارحة: لماذا تمشي الحمير على أربع ونمشي نحن على اثنتين فقط؟ أليس أريح للناس لو مشوا على أربع؟».

فضحك أبي، وقال: «لم تغلط أمّك حين نصحتني بأن أربط فمك

https://facebook.com/groups/abuodwalel

بمنديل حتّى لا تتكلّم طول الطريق».

ولم يعصب أبي فمي، بل اشترى لي ونحن نسير في الشوارع كيساً من الورق المصقول الملوّن مملوءاً بكرات من الشكولاته، واشترى لي فستقاً محمصاً وسكاكر متنوعة الألوان، وبلغنا المقهى الذي يقصده أبي قبل أن أنتهي من أكل ما اشتراه لي، وإذا بأبي قد واعد خمسة من أصدقائه وزملائه في العمل، وجلسوا يشربون الشاي ويدخنون السجائر ويتكلّمون عن صاحب معمل النسيج المحبّ للمال، والذي رفض بإصرار أن يزيد أجورهم، فأعلنوا الإضراب، ولم يذهبوا إلى العمل، وتكلّم أبي كأنه زعيمهم، وتكلّم الرجال الآخرون، وتكلّم أبي، وتكلّم الرجال، وتكلّم أبي، فألصقت وجهي بسطح الطاولة الخشبية منصتاً لضوضاء المقهى الممتزجة بهدير السيارات في الشارع القريب، وأحسست بيد أبي تهزّني، وقال لي إني نمت حوالى ساعة، فأنكرت، وقلت إنّي كنت مغمض العينين فقط ولم أنم.

وعندما كنّا نسير في الشوارع متجهين نحو بيتنا، سألت أبي: «إذا لم يوافق صاحب المعمل على زيادة أجوركم، فهل ستظلون تضربونه؟».

فبهت أبي، وحملق إليَّ بدهشة، وقال لي: «إياك وأن تقول لأمّك أو لأخيك أيّة كلمة مما سمعته في المقهى».

فظللت ساكتاً أفكّر، فقال لي أبي: «لن نقول لأمّك أيّة كلمة عن الإضراب، ويجب ألّا تعلم به. المرأة همّها الأول في الحياة أن يشتغل الرجل في كلّ يوم حتى لا يجوع أيّ فرد من أفراد عائلتها، والمرأة ليست كالرجل، فهي تضعف أمام أصغر مصيبة».

وسكت أبي لحظات ثم سألني فجأة: «أأنت رجل أم بنت؟».

قلت: «رجل».

قال: «أنت رجل وأنا رجل، والرجال لهم همومهم وأسرارهم، والنساء لهن همومهن وأسرارهن».

وطوّح أبي بعقب سيجارته إلى الأرض، وداسه بحذائه ثم سألني: «أجب بصدق. أتريد أن تحزن أمّك وتبكي؟».

قلت: «لا».

قال: «أتريد أن تمرض أمّك وتنقل إلى المستشفى ولا نراها إلّا مرة واحدة في الأسبوع؟».

قلت: «لا».

قال أبي: «ما سمعته في المقهى وكلّ ما حكيناه الآن هو سرّ بيننا نحن الرجال، ويجب ألّا تعلم به النساء».

قلت: «أخي رجل، فهل سأخبره؟».

قال: «أخوك رجل، ولكنّه يجب ألّا يعلم بما يعرقل دراسته في المدرسة».

ولم أخبر أمّي وأخي بأي شيء، وظلّ أبي طوال أسابيع لا يذهب إلى العمل بحجّة أنّ الإصلاحات في المعمل لم تنته بعد، ولكنّه في صباح أحد الأيام نهض من نومه مبكراً، وتناول طعامه بسرعة، وارتدى ثيابه بسرعة، وهمّ بمغادرة البيت بسرعة حتى لا يصل إلى العمل متأخراً.

وعند باب البيت، قال أبي لأمّي وهو يشير إليَّ مبتسماً: «ألا تلاحظين أنّ ابنك ازداد طولاً؟».

فتأملتني أمّي مليّاً ثم قالت لأبي: «يبدو أنّك ما زلت نائماً. ابنك هو هو. لم يطول ولم يقصر».

وغادر أبي البيت، فهرعت إلى غرفة نوم أمّي وأبي، ونظرت إلى المرآة الطويلة، فرأيت رجلاً له همومه وأسراره المختلفة عن هموم النساء وأسرارهن.

الملح

أوشكت أمّي أن تنتهي من طهو الطعام، فتنبهت إلى أنّ ما لديها من ملح قد نفد، ولامت نفسها بصوت عالٍ حانق، فأبي في المعمل، وأخي في المدرسة، وإذا ذهبت لشراء ما تحتاج إليه من ملح، فقد يحترق الطعام في أثناء غيابها، ولم تجد حلاً لهذه الورطة إلّا أن تكلفني بشراء الملح من دكان البقال في سوق الحارة، وأعطتني النقود، وأوصلتني حتى باب البيت وهي توصيني بألّا أمشي وسط الطريق، وألّا أتشاجر مع أيّ ولد، وأن أشتري ملحاً لا سكراً.

سرت لصق الحيطان في زقاقنا الطويل سريع الخطى، وانعطفت يساراً في الطريق الموصل إلى سوق الحارة حيث دكاكين بيّاع الخضر واللحام والبقال والحلاق والفوّال وبيّاع الدخان، فلمحت ثلاثة أولاد أكبر مني سنّاً، اعتادوا السخرية مني كلّما رأوني، وتباطأت خطواتي على الرغم مني، وارتبكتُ وتحيّرتُ، فالعودة إلى البيت بغير ملح ستعرّضني لتوبيخ أمّي، أمّا إذا تابعت

السير، فوجوه الأولاد الثلاثة تنبىء أنّهم لن يكتفوا بالسخرية مني كعادتهم.

مشيت كأني لم أرَ أحداً، وتصايح الأولاد متضاحكين لحظة اقتربت منهم، وتدانت رؤوسهم متهامسين ثم اعترض الثلاثة طريقي مشكلين جداراً، وقال لي أحدهم، وكان ذا وجه أسمر وعينين صغيرتين سوداوين وأذنين كبيرتين: «المرور ممنوع».

قلت: «أنا ذاهب إلى البقّال».

فلكزني الولد الأسمر بمرفقه لكزة قوية موجعة قائلاً لي بنزق: «أف! أنت أطرش؟ ألم تسمع ما قلنا؟».

والتفت إلى رفيقيه متسائلاً: «ماذا قلنا؟».

فصاح الولدان بصوت واحد: «المرور ممنوع والعتب مرفوع».

وقال لي الولد الأسمر: «أسمعت؟ من يرغب في المرور، من واجبه أن يرضينا ويدفع الثمن».

فتمسّكت أصابع يدي اليمنى في جيب بنطالي بثمن الملح بينما صاح الولد الأسمر بصوت فرح مخاطباً رفيقيه: «انظرا انظرا إلى رقبته. اللّه ما أعرضها وما ألذّها! تصلح مطاراً تهبط عليه الطائرات».

وأهوى الولد الأسمر فجأة بكفّه على مؤخرة رأسي في صفعة قوية مؤلمة، وقال لي: «الآن صار المرور مسموحاً وفقاً لقوانيننا التي لا تسمح لأحد بأن يمرّ مجاناً».

فانحنيت على الأرض، وتناولت حجراً صلداً أكبر حجماً من قبضتي، وقذفت به نحو الولد الأسمر بيد جنّ جنونها، فاندفع الحجر كقذيفة مدفع ليبلغ مرماه، وينبثق فوراً الدم الأحمر الغزير من رأسه، ويبلل شعره، ويسيل على جبهته وحاجبيه وعينيه، فارتعب

الولد الأسمر، وقعد على الأرض وهو يبكي ويولول بصوت كصوت النساء، فسارع رفيقاه إلى الهرب، وركضت عائداً إلى البيت، وما إن رأتني أمّي حتّى سألتني: «أين الملح؟ ولماذا وجهك أحمر وتلهث؟».

فأخبرتها بشجاري مع الأولاد الثلاثة متوقعاً أن تتباهى بي، ولكنها صاحت بي شاحبة الوجه: «الله لا يكبرك. ماذا يقول أبوك حين يسمع الخبر؟ نحن ناس لا نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا».

فقلت لها: «لا تزعلي. في المرة الثانية، سأعود إلى البيت مضروباً يسيل مني الدم حتّى ترضي».

فقالت لي أمّي: «ماذا تقول؟ مرة ثانية؟! لم تعد يا مسكين تستطيع أن تمشي وحدك في الحارة لأنّ الأولاد سيكونون بانتظارك لينتقموا منك».

وما تنبأت به أمّي لم يتحقق، فعندما خرجت من البيت وتجوّلت في الحارة مخبئاً حجراً في جيبي، تبدّل الأولاد، واستقبلوني كأنّي أكبر سنّاً منهم، وكان الولد المضروب المضمد الرأس أوّل المتبارين في التحبب إليّ.

سألتُ

سألتُ شجرة النارنج المنتصبة في باحة البيت عن عمرها، فأجابت أنها ولدت قبل أن أولد، وسألتها بعد ثلاثين سنة عن عمرها، فقالت لي مستغربة إن الرجال لا يتكلمون عادة مع الأشجار، والأطفال وحدهم هم الذين يثرثرون مع الأشجار، وينسون ثرثراتهم حين يكبرون، وينظرون إلى الأشجار على أنها إما أشجار مثمرة، وإما أشجار تحافظ على اخضرارها في كل الفصول، وإما أشجار آن أوان قطعها.

وسألت الماء المتدفق من الصنوبر وأنا أهمّ بغسل وجهي عما يقول هديره، فقال لي ساخراً إنه يدخن السجائر مثلما أدخن، ويعرف أضرارها المسيئة إلى الصحة، ويحلو له التذكير بها، فقلت له مستنكراً: «أتجرؤ على السخرية مني؟».

فقال لي الماء: «وحتى إذا كنت أسخر منك، فماذا تستطيع أن تفعل خاصة وأني لا أملك جسماً لتضربه ولا رأساً لتقطعه ولا أماً لتشتمها؟».

فأقسمت ألا أتكلم مع ماء، فالماء تبدلت طبائعه، وفقد لطفه ورقته ودماثته، وبات يهوى الشجار وإهانة الناس.

وسألت حيطان الغرف عن آخر الأخبار، فقالت لي إن المحطات التلفزيونية والإذاعية هي المختصة بتقديم آخر الأخبار، وكل من يحاول منافستها يهزم.

وسألت قطاً عما إذا كان يتذكر قطتي البيضاء الجميلة التي ماتت بعد مرض مفاجيء، فنظر القط إليّ باحتقار، ولم يفه بكلمة.

ورآني حارس المقبرة محني الرأس والظهر أكلّم قبر أبي وأمي معاتباً أخي المسافر الذي لم يردّ على رسائلي منذ سنتين، فقال لي إن الموتى يضيقون بالكلام، ويفضلون سماع آيات من القرآن الكريم.

وبحثت عن قميصي الأزرق، وسألت زوجتي عنه، فقالت إنها وجدت ياقته مهترئة ورمته في الزبالة، وبحثت عن حذائي الأسود المريح، وسألت زوجتي عنه، فقالت إنها وجدته مثقوباً ورمته في الزبالة، ورغبت وأنا أتأمل عينيها السوداوين ووجهها الأبيض المتعب في أن أسألها عن حبها لي، ولكني فضلت أن أظل ساكتاً.

وسألت ابني الصغير عما يفعل، فقال لي إنه يرسم قرية صغيرة لا يعيش فيها إلّا القطط والطيور والشجر، فربّتّ براحتي على رأسه مشجعاً، ونويت أن أقلّده، وسأرسم مدينة ليس فيها أي حيّ، وشوارعها وبيوتها جبال رماد.

نبذة عن المؤلف

- زكريا تامر، مواليد دمشق عام ١٩٣١.
- يكتب القصة القصيرة والخاطرة الهجائية الساخرة منذ عام ١٩٥٧.
- يكتب القصة الموجهة إلى الأطفال منذ عام ١٩٦٨.
- سبق له أن عمل في وزارة الثقافة ووزارة الإعلام في سورية، ورئيساً لتحرير مجلة «الموقف الأدبي»، ومجلة «أسامة»، ومجلة «المعرفة».
- ترجمت كتبه القصصية إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والبلغارية والروسية والألمانية والصربية والكاتالونية والمجرية.

صدر له:

سلسلة الأعمال القصصية:

- **صهيل الجواد الأبيض**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٦٠، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **ربيع في الرماد**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٦٣، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **الرعد**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٠، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **دمشق الحرائق**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٣، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **النمور في اليوم العاشر**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٨، ط٢ ١٩٨١، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠٠، بيروت.
- **نداء نوح**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٤٤، ط٢ ٢٠٠١، بيروت.
- **سنضحك**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٩٨، بيروت.
- **الحصرم**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ٢٠٠٠، بيروت.
- **تكسير ركب**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ٢٠٠٢، بيروت.
- **هجاء القتيل لقاتله**، مقالات قصيرة، رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ٢٠٠٣، بيروت.

زكريا تامر

القنفذ

في هذه القصة لزكريا تامر ثمة «فلاش باك» في عودة إلى الطفولة ربما حسب تعريف برنارد شو: «العبقرية هي استعادة الطفولة عن قصد». لذلك من البداية نجد أنفسنا أمام صفاء مدهش في المكان. ووعي طفل يحاول اكتشاف أبجدية الحياة. هنا المنزل والحديقة والشجرة والحائط والإنس والجن ونوم العوافي والشقاوة في هبوب لذكرى هناءة قديمة.

في هذه القصة بيت دمشقي وأسرة دمشقية مؤلفة من أب وأم وشقيق، وكذلك حارة ومدينة نتحرى ملامحهم جميعهم عبر تلك اللقطات الشديدة الاختصار والتي يبرع فيها زكريا تامر كرائد كبير من رواد القصة في العالم العربي.

أبو عبدو البغل

https://facebook.com/groups/abuab/

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS